

الحلقة (٢٥)

ولعلكم تذكرون أن اللقاء السابق وقف بنا إلى تفسير قول الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقلنا لكم أن الذي عليه الأكثر أن هذه الآية هي آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يعيش بعدها إلا إحدى وعشرين ليلة وقيل سبع وقيل ثمان بل قيل ثلاث ساعات وهذا القول قول شاذ أنكره الحافظ ابن حجر وغيره .
المهم أن هذه الآية لها دلالتها ومكانتها، فهي جاءت عقب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، لاسيما لمن يتعاملون بالربا، فإن لم يكف الإنسان كل ذاك الوعيد أو هذا الوعد فعليه أن يتذكر يوماً يرد فيه إلى الله عز وجل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١) وقلنا إن العرب تفعل هذا كثيراً، فإن أرادت الحدث نسبته إلى اليوم أو إلى يوم بعينه، فيقال: يوم بُعث وغير ذلك، وانتصاب "يَوْمًا" على أنه مفعول به لا على الظرفية كما توهمه بعضهم.

بعد تلك الوقفات مع كتاب الله عز وجل ننتقل إلى وقفات جديدة؛ وهذه الوقفات هي أيضاً لها علاقة بالمال، وقلنا إن المال عصب الحياة، وقلنا أن ضرب القرآن الكريم في ثنانياً سورة مثلاً كثيرة للمال الصالح والمال الفاسد، وجعلنا أنموذجنا على المال الفاسد قارون، وقلنا وما أكثر القوارين، ودللنا على أن المال الصالح تمثل في نبي الله سليمان بن داود عليهما وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم، فإذن هذه الآية الآتية هي في السياق ذاته، بيد أن الظروف قد تكون مختلفة بعض الشيء، وهذه الآية هي قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا

فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اٰؤْتِمِنَ اَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَاِنَّهٗ اِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

هذه الآية آية الدّين أطول وأعظم آية في كتاب الله عز وجل من حيث المعاملات المالية، ولا سيما فيما تعلق منها بالدين، وهذه الآية أعني آية الدّين أو آية المداينة اتفق العلماء على أنها أطول آية في كتاب الله عز وجل بلا منازعة ولا مدافعة، وهذا واضح من التلاوة، واضح مما هو موجود في المصحف الكريم.

هذه الآية حوت أحكاماً كثيرة جداً، وكما يقول ابن خوزيمنداد: "إنها حوت ثلاثين حكماً" هذا الحصر، أحسب أن شخصاً لو أعمل فكره وعقله لاهتدى إلى أكثر من الثلاثين التي ذكرها ابن خوزيمنداد، ونحن نحاول من خلال عيشنا معها أن نقف على بعض الجزئيات أو على بعض المباحث. نحن قلنا ولن نمل من ترداد هذا، أن القرآن الكريم حريص الحرص كله على التثام الأمة، وبناء الأمة يبدأ من بناء الأفراد، وبناء المجتمعات يبدأ من بناء الأفراد، وبناء الدول يبدأ من بناء الأفراد، فالفرد هو وحده أمة، نعم قد يكون أمة، أمة في دينه، أمة في أخلاقه، أمة في سلوكه الحضاري، كل ذلك قد يستطيع الإنسان إذا وُفق أن يكون أمة، وإبراهيم عليه السلام جمع الله عز وجل له -وهو الخليل- ما تشئت في أمم في شخصه ﷺ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إذا فبناء الأفراد يبدأ من الشخص الفرد نفسه، فطالما أن الأمر كذلك هذا الفرد قد ينتقل من مكان إلى آخر، قد يحتاج إلى أخيه المسلم أو أخيه في الإنسانية، قد يعنّ له أمر فيسافر فيضطر إلى مبلغ فيستدين؛ فإذا كان الأمر كذلك هذه التفرعات وغيرها يمكن لنا أن نقف معها من خلال هذه الآية الكريمة فلنتوكل على الله عز وجل حق التوكل، ولنقف معها وقفة مسترشدة مستهدٍ، والقرآن كله هداية وإرشاد، إذن أول ما يأتينا عند قوله عز وجل والآية رقمها الثانية والثمانون بعد المائتين والتي بعدها الثالثة والثمانون بعد المائتين، في واقع الأمر كما سرنا ونسير على هذا، يقتضي قبل الدخول في الآية أن نذكر المناسبة وبعد المناسبة سبب النزول.

✽ مناسبة الآية لما قبلها:

فأما المناسبة فلها وجهان أي مناسبة الآية التي معنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ لتي قبلها لها وجهان:

◀ الوجه الأول: أن الله لما ذكر قبل هذا الحكم نوعين، قال بعض المفسرين: المراد بالمداينة السّلم، والله عز وجل لما منع الربا في الآية المتقدمة أذن في السّلم في جميع هذه الآية، هذا وجه.

◀ والوجه الآخر: أن الله عز وجل لما حدّر وأنذر من شدة ما يقع في يوم القيامة من أهوال ومن أحوال؛ بيّن هنا أن السالم بإذنه هو سبحانه وتعالى السالم من تلك الأهوال والأحوال هو من إذا دين أو تدّين إنما يتقي الله عز وجل، هذا وجه من وجوه المناسبات.

❁ سبب نزول آية الدين:

قال ابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن ومفسره: أنها نزلت في السلف -أو السلم- لأن النبي ﷺ قَدِمَ المدينة وهم يسلفون في التمر السنتين والثلاث، فهذه الآية بناء على سبب النزول نَظُمَتْ وأباحَت وبيّنت سلامة ما يفعله الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقلت لكم أن الاقتصاد الإسلامي إنما هو اقتصاد تنظيم، وتوجيه، وترشيد، ومنفعة للجميع، ويوسف عليه السلام ممكن نقول: أنه واضح علم الاقتصاد.

❁ مفردات الآية:

﴿ قوله تعالى ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾: لاحظوا -وأنتم لحظة- أن الفعل يحمل معنى الاشتراك، يعني أكثر من اثنين، أو أكثر من واحد على جهة الدقة، ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ وهذا فاش وكثير في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، فنحن نقول: (تقاتل) فلا يصح أن يقال للفرد: (تقاتل)، إنما فيه معنى الاشتراك، فالتداين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ التداين تفاعل من الدَّيْن أي تبايعتم، ومعناه دايين بعضكم بعضاً. قال بعض أهل اللغة: القرض غير الدين؛ لأن القرض أن يقرض الإنسان دراهماً أو حباً أو تمراً ولا يجوز فيه الأجل، فإذا البعض من علماء اللغة يفرقون بين القرض والدين، فلا يصح أن يقال للقرض أنه دين، كما لا يصح أن يقال عن الدين أنه قرض، والدين يجوز فيه الأجل، يعني القرض دائماً ولا سيما وهذا مصطلح إسلامي ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

فلفظة القرض في المصطلح الإسلامي فيها بُعدٌ آني وبُعدٌ أجل، فالمقرض دائماً يبحث عن الثواب من الله عز وجل، ثم أيضاً في النهاية يأخذ ماله لأنه دفع عن أخيه المضطر حاجة مُلجئة، وأما الدين فهذا حق ثابت لا يتخلف لا بموت ولا بحياة ولا بربح ولا بخسارة ولا بأي شيء، حق ثابت في ذمة المستدين ويبقى هذا الحق ثابتاً عليه إلى أن يقوم هو أو أحد من جهته بإيفاء هذا الدين، وصح في الخبر (يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين) بل إن الرسول ﷺ جيء بجنازة فسأل عن صاحبها أهو عليه دين؟ فإن قالوا عليه دين قال لهم: (صلوا على صاحبكم) وإن لم يكن عليه دين صلى عليه ﷺ، هذا كله يدلنا على أن الدين حق ثابت.

﴿ قوله تعالى ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ﴾: الأجل: أصله من التأخير، يقال: أَجَلَ الشيء يأجل إذا تأخر، ومنه أَجَلَ الإنسان سُمي أجلاً لأنه متأخر عن الحياة.

﴿ قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾: أي اكتبوا الدين بأجله، لأنه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف.

أي أن الدين إذا كُتِبَ -ومن أجل هذه القضية تتقاطع الأواصر، وفي البداية قليل من الحياء المذموم يجلب قطيعة دائمة، إذ الأصل أن الدين له أهمية قصوى، فطالما الأمر كذلك فيجب على المستدين أن لا يغضب إذا استكتب الدين الدائن، فالدائن إذا كتب إن شاء الله لو ريال أو ألف مليار، مادام هذا دين فالواجب أن يكتب ويوثق، لأن النفوس أمام المال تتغير، ولا سيما في هذه العصور الأخيرة،

فرأينا ورأى غيرنا كم من المشكلات والمقاطعات وقعت بسبب عدم الانصياع لآية الدين -
﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إنك إن كتبت فبإذن الله حقلك إن لم تستلمه أنت؛ قد يستلمه وريثك العشرون بعد
القرن الخمسين؛ لأنه حق ثابت، وأما إن لم تكتبه وإما أنك استحييت ولم يكن هذا الحياء محموداً؛
فقد يجحدك غداً، والناس في وقت يتعاملون بالمال بشكل يدعو للإشفاق.

﴿قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾: هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، وظاهر الأمر
الوجوب، وفيه قال عطاء والشعبي وغيرهما فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طُلب منه ذلك ولم
يوجد كاتب سواه، وقيل الأمر للندب، الذي يظهر أن الأمر على حسب الواقعة، وإلا فإن شيخ
المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله ذهب إلى الوجوب، وانتصر له، واستدل له، واستشهد له.
﴿قوله تعالى: ﴿بِالْعَدْلِ﴾: متعلق بمحذوف صفةً لكاتب، أي كاتب كائن بالعدل، أي يكتب بالسوية
ولا يزيد ولا ينقص ولا يميل إلى أحد الجانبين.

﴿قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ﴾: النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم، أي لا يمتنع أحد من
الكتاب أن يكتب كتاب التداين.

﴿قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: أي على الطريقة التي علمه الله من الكتابة.

﴿قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: الإملال والإملاء لغتان، وهو الكتابة.

﴿قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: هو من عليه الدين، أمره الله سبحانه وتعالى بالإملاء؛ لأن
الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين في ذمته.

إذا فالآية وجهت وأمرت الشخص الذي يستدين أن يكتب ما عليه وهذا واجب، ولا يرى أي
غضاضة في هذا؛ لأنه حفظ حقوق فلا مشكلة أبداً، فالأمر هنا على الندب؛ هذا هو الذي عليه
الجمهور؛ لكن شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ذهب كما ذهب غيره إلى أن الأمر للوجوب، وهو
يرى أن أي أمر في كتاب الله ما لم يوجد صارف فهو للوجوب.